



محمد أمين أبو بكر

الشريف الرضي من أمراء الشعر العربي

تعبر بدقة عن المعنى المقصود وصياغة محكمة بعيدة عن الحشو والتكلف تناسب فيها الشاعرية انسياب جداول الماء من المرتفعات إلى المنخفضات وقد عرف عن الشريف الرضي أنه كان يهتم اهتماماً كبيراً بتدبيح قصائده الشعرية تنقيتها من عيوب التعبير والمعنى الباهت والصورة المبتذلة فرسم شعره بذلك أروع صورة لحياته الزاخرة بالانفعالات فكثر في شعره صور الرجولة والفروسية والفخر بالآباء والأجداد في جميع المواقف وها هو يقول وهو يمدح الخليفة العباسي القادر بالله:

عطفاً أمير المؤمنين فإننا

في دوحة العلياء لا تتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت

أبدأ كلانا في المفاز معرق

إلا الخلفة قدمتك فإنني

أنا عاطل عنها وأنت مطوق

كما يأتي شعره مشحوناً بالعواطف الجياشة

والصور المؤثرة فلا يكاد يذكر الوقوف على أطلال

الأحبة بعد رحيلهم إلا وتأتي عفو خاطر أبيات الشاعر

التي نقشت في عقول عشاق الأدب من بعده والتي يقول

فيها:

إنه كوكب تالق في سماء الشعر العربي في أوج ازدهاره وقمة نضوجه، حتى غدا علماً من أعلامه عبر العصور وأميراً من أمراء الشعر العربي في العصر العباسي.

ولد الشريف الرضي عام ثلاثمائة وتسعة وخمسين من الهجرة، ونشأ في روضة الشعر الساحرة وبين خمائله النضرة في بغداد حيث كانت ولادته بعد وفاة قمة الشعر العربي عبر العصور أبي الطيب المتنبي بخمس سنوات، فتتلمذ على أيدي أساتذة تأثروا بالمتنبي وحفظوا قصائده وتفاعلوا مع شعره وشهدوه واقعاً حياً ممثلاً في سلوك قاتله وهكذا كان لا يحضر مجلساً أدبياً أو منتدى ثقافياً أو لقاء شعرياً إلا ويسمع إعجاب أصحاب الرأي فيه بشعر المتنبي مما شكل دافعاً عند الشريف الرضي يمثل على اقتفاء شعر المتنبي وتتبع آثاره والتتلمذ على قصائده ومحاولة محاكاة نهجه الشعري المتألق بصورة جعلت الشريف الرضي يحتل تلك المكانة المرموقة في عالم الأدب والشعر والتي عارض خلالها بعض قصائد المتنبي واستعار عباراته استعارة بناءة دفعت عنه شر الاتهام بالسرقة وأعطت شعره تميزاً نادراً.

يبدو واضحاً لكل من يقرأ شعر الشريف الرضي ضافة إلى ما يتصف به هذا الشعر من عبارات نقية

وأذكر ما مضى في فيض صبري
وتنفر عبرتي ويروح صمتي
ولي قلب إذا ذكر التلاقي
تظلم من يد البيت المشت
ويكاد يكون الشريف الرضي أحد القلة القليلة من الشعراء
الذين لم يتكسبوا بشعرهم مما جل علاقته بأصحاب المال
وذوي الجاه والسلطان علاقة صداقة وود واحترام متبادل
إلا أن الشريف الرضي رحمه الله ترك من جملة ما ترك
كافيته الرائعة برقتها وعذوبتها وصورها وعباراتها
وعاطفتها وفصاحتها وبلاغتها وتآلقها ومما قال فيها:
يا طيبة البان ترعى في خمائله
لينهك اليوم إن القلب مرعك
الماء عندك مبدول لشاربه
وليس يرويك إلا مدمعي الباكي
سهم أصاب ورامية بذني مسلم
من بالعراق لقد أبعدت مرمك
أنت النعيم لقلبي والعذاب له
فما أمرك في قلبي وأحلاك
وعد لنفسك عندي ما وفيت به
يا قرب ما كذبت عيني عينك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
من علم العين أن القلب يهواك
وهكذا ترك لنا الشريف الرضي رحمه الله تراثاً شعراً
زخراً بكل ألوان الروعة والجمال والإبداع بعيداً عن التكلف
والتزلف والتكسب تطرزه عاطفة جياشة وخيال نادر والوان
قلما عرف الشعر العربي لها مثيلاً.

ولقد مررت على طولهمو
وديارهم بعداً البلى نهب
فوقفت حتى ضج من لقب
نضوي وضج بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذخفيت
عني الطلول تلفت القلب
وهنا يرسم الشاعر صورة مؤثرة للمحب المتتبع
لآثار أحبته فإذا ما اختفت عنه الأطلال واندرست الآثار
وعجزت الأعين عن الطفر بما يريد تلفت القلب بما فيه
ليخترق كل الحواجز ويعبر كل المسافات ويرى ما عجز
عنه البصر.

قال عنه القدماء: إنه كان مهيباً معتداً بشخصيته
يكنى بأبي الحسن وقد سمي الشريف الرضي لأنه كان
نقيب الأشراف وينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن
أبي طالب رضي الله عنهما وكان أحد علماء عصره في
الدين واللغة والأدب وتكاد تجمع روايات الأدباء والنقاد
على أن كتاب نهج البلاغة المنسوب لأمير المؤمنين علي
رضي الله عنه كان جمع الشريف الرضي لأن التأليف
بصورته المتكاملة لم يكن قد بدأ في عهد أبي الحسن
رضي الله عنه إلا أن ذلك كله ما كان ليحول بينه وبين
الغزل الرقيق العذب العفيف المعبر.

إن كل من يرتحل مع الشريف الرضي من خلال
قصائده العذبة ويسرح في رضا الغباء تأسره كلماتها
وصورها وعبارتها ورقة معانيها ويكاد يدهشه ما في
غزلياته من عفة وذوق رفيع إلا أن ذلك ليس غريباً
على من كان أميراً للحج ونقيباً للأشراف وقاضياً ينظر
في مظالم العباد فلم يكن أمامه إلا أن يسوق عواطفه
الملتبهة وأشواقه المتأججة. ومما قاله معبراً عن لهب
الحنين والشوق في لوحة فريدة عذبة الصياغة رائعة
الإيقاع:

أحن إلى لقائك كل يوم
وأسأل عن إيابك كل وقت